جامعة الإخوة منتوري قسنطينة1
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية

دروس تطبيقية في مادة النص الأدبي القديم

الأستـــاذ: د/عبد العزيز نقبيل
المقيـــاس: نص أدبي قديم
السنـــــة: الأولى لسانس
التخصص: لغة وأدب عربي
النـــــوع: تطبيق
الفـــوج: 14 أ – 14 ب المجموعة: 3.

الشعر العربي القديم

الإطار الجغرافي للشعر العربي:

الشعر العربي هو الشعر الذي قاله العرب الذين يسكنون شبه الجزيرة العربية، وهو موطن العرب في جاهليتهم الذي يمتد في رقعة واسعة ذات بقاع متباينة، هو موطن واسع تقارب مساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع تحيط به المياه من ثلاث جهات، من الشرق الخليج الفارسي وبحر عمان، ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الغرب البحر الأحمر[1]. في هذه الرقعة كانت تعيش الأمة العربية، ويختلف مناخها باختلاف طبيعة أرضها، ففيها شواظ من لهيب الحر يشوي الوجوه، وسموم تلوّح الأبدان، وفيها ثلوج تكلل الجبال، وصقيع يجمد الماء في أطراف الأحياء، وفيها مابين هذا وذاك مناخ معتدل، وفيها أمطار غزار تنساب أنهارا وجداول تقوم على ضفافها مدن وقرى، وتهتز الأرض فتخرج من ثمرها وبقلها وفاكهتها ما شاء الله لها.

كما تذكر المصادر التاريخية أن للعرب قديما إمارات منها: التبابعة الذين سكنوا صنعاء، وأشهر ملوكهم بلقيس معاصرة النبي سليمان بن داود–عليه السلام– وإمارة المناذرة الذين كانوا بالعراق وعاصمتهم الحيرة، ومن ملوكهم عمرو بن هند، والنعمان الرابع ممدوح النابغة، والمناذرة غير مستقلين يخضعون لدولة الفرس، وإمارة الغساسنة وعاصمتهم دمشق والبلقاء ويخضعون للروم خضوع المناذرة للفرس، وغيرها من الإمارات مثل إمارة كندة وتغلب وبكر وعبس، وكانت الإمارة تتناول أكثر من قبيلة، والإمارات عربية في أخلاقها وعاداتها ولغتها[2]. يقسم النسابون القبائل العربية إلى قسمين كبيرين هما: قسم عدناني مضري وهم عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر،قسم قحطاني ينحدر من قحطان وهم عرب الجنوب.

هذه القبائل، كانت تتحد في نظمها وقوانينها وتقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد كما تشترك في تقاليد وأعراف تتمسك بها تمسكا

---

[1]–عبد الرحمن عبد الحميد علي: تاريخ الأدب في العصر الجاهلي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، دط، 2008، ص11.

[2]–ينظر: مارون عبود، أدب العرب مختصر تاريخ نشأته وتطوره وسير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2014، ص15.

شديدا، والرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة الواحدة هو العصبية القبلية، كما عرف أيضا المجتمع الجاهلي ظاهرة الأحلاف؛ والحلف هو إتحاد كبير يضم عدة قبائل، وكان للقبائل المتحالفة مجلس يضم شيوع عشائرها يطلق عليه اسم الندوة وهذا المجلس ينظر في مختلف شؤون قبائلهم، يشير إلى ذلك زهير بن أبي سلمى [3]:

وفيهم مقامات حسان وجوهـــهم وأندية ينتابها القول والفـــعلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتـهم مجالسَ قد يُشفى بأحلامها الجهلُ
وما يك من خير أتوه فإنـــــما توارثه آباء أبائـهم قبـــــلُ

كانت قرارات هذه المجالس نافذة وجميع أفراد القبيلة تذعن لها ولا تشذ عليها وكل الأفراد يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها، وعلى رأسها الأخذ بالثأر، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم وقدسوها، يصور الشاعر دريد بن الصِّمة هذا الموقف بقوله[4]:

وما أنا إلاّ من غَزيّةَ إن غَوَتْ غويتُ وإنْ تَرشَدْ غزيةُ أرشَدِ

فغيّه ورشده يرتبط بعشيرته غزية، فإن ضلت ضلّ معها، وإن اهتدت اهتدى معها وهو موقف يصور العصبية القبلية أيما تصوير.

الشعر الجاهلي:

الشعر الجاهلي هو كل شعر قيل قبل فترة الإسلام، المنظوم على شكل أراجيز أو قصائد أو مقطوعات، يضم قصائد الفحول من الشعراء المعروفة بالمعلقات، وقد عبّر كله عن حياة العرب في الجاهلية، باعتباره مرآة الحياة العربية والصورة الصادقة لعاداتهم وتقاليدهم ومثلهم وفيه الكثير من القيم الفنية والصور الجميلة والمعاني الدقيقة، وهو النموذج المحتذى في العصور الأموية والعباسية يسعون إلى تقليده ومحاكاته، وقد بقي أثره واضحا في شعر العصور المتأخرة[5].

والشعر ديوان العرب وجامع أيامهم وأخبارهم "وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون"[6] ويقول أبو هلال العسكري: "لا نعرف

---

[3]-زهير بن أبي سلمى: الديوان، شرح علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص7.

[4]-دريد بن الصمة: الديوان، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1985، ص62.

[5]-ينظر: يحي الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط5، 1986، ص121.

[6]-ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2001، ص34.

أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها"[7].

بدايات الشعر الجاهلي:

لاشك أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوفى في صورته الجاهلية التي يعرف بها غامضة، فليس لنا أشعار تصور أطواره الأولى، وإنما مابين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغة المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى، فقد حاول ابن سلام الجمحي الحفر في بدايات الشعر العربي في قوله:"لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"[8] وهناك نص للجاحظ أيضا يقول فيه: "وأما الشعر فحديث الميلاد وصغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له –إلى أن جاء الله بالإسلام– خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"[9].

التطبيق:

1–من قائل هذه الأبيات؟ اقرأ وحلل القصيدة.

2–استخرج ما تعالجه من موضوعات(أغراض)

يقول الشاعر:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

فبت كأن العائدات فرشنني هراسا به يعلى فراشي ويقشب

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب

ولكنني كنت امرأ لي جانب من الأرض فيه مسترّاد ومذهب

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب

7–أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1952، ص138.

8–ابن سلام الجمحي: طبقات الشعراء، ص35.

9–الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، 1965، ج1، ص74.

كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
فإن أك مظلوما فعبد ظلمته وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب

شعر المعلقات: المضامين والأساليب.

المعلقات هي مجموعة من القصائد المنظومة في العصر الجاهلي، وعدت من أجود ما قالته العرب، وأصحابها من أشهر شعراء الجاهلية اختلف القدماء في عددها وفي تسميتها فمنهم من يقول ثماني معلقات، ومنهم من يقول عشرة ومنهم من يقول سبعة، والعدد سبعة هو الأرجح عند الباحثين، والبعض يضيف ثلاثة آخرين، وأصحاب المعلقات هم: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، ولبيد بن ربيعة، وطرفة بن العبد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلّزة، وأما الثلاثة الآخرون فهم: النابغة الذبياني، والأعشى، وعبيد بن الأبرص، وسميت أيضا بالقصائد الطوال وبالسموط تشبيها لها بالقلائد والمذهبات على اعتبار أنها كتبت بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة[10].سميت بالمعلقات لأنها تعلق بالأذهان وهو الرأي الراجح، والمعلقات نماذج رائدة من عيون الشعر الجاهلي في منتهى الجودة والإحكام، عدّها النقاد مقياسا للشعر العربي القديم لما تحمله من تقاليد شعرية، وقيم تمثل حياة العربي في العصر الجاهلي، وللمعلقات قيمة أدبية تتجلى في تصويرها للبيئة الجاهلية وحياة العربي في هذه الفترة في كل المجالات المختلفة، وموضوعاتها متنوعة وأسلوبها قوي متين.

أ1–ولا–معلقة امرئ القيس:

---

[10]–ينظر: أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص113.

امرؤ القيس من قبيلة كندة وهي يمنية تنزل غربي حضرموت، هاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشام، ومنهم أمير يسمى حجرا آكل المرار أبو امرئ القيس قتلته قبيلة بني أسد[11] وتتردد لامرئ القيس أسماء كثيرة فيسمى حندجا، وعديا، ومليكة، ويلقب بذي القروح، والملك الضلّيل، وأشهر ألقابه امرئ القيس، والقيس من الأصنام الجاهلية، أمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[12].

تذكر المصادر أنه لما أتاه خبر مقتل أبيه كان بدمون من أرض اليمن قال: ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر[13]

تتكون معلقة امرئ القيس من ثمانية وسبعين بيتا من الشعر، وتضمن عدة موضوعات نلخصها في ما يلي:

1-الوقوف على الديار وبكاء الأطلال يقول في مطلع معلقته[14]:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يعْفُ رسْمُها لما نَسَجَتْهاَ من جَنوبٍ وشَمْـــأَلِ

ترى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرصاتِها وقيــعانها كأنَّـهُ حَبُّ فلفـلِ

2-يخاطب بعد ذلك صاحبته مستعيدا ذكرياته معها يقول[15]:

أَفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التَّدلُّلِ وإنْ كنتِ قد أزمعتِ صَرمي فأجْمِلي

أغرَّكِ منِّي أنَّ حبَّكِ قاتِلي وأنَّكِ مهما تأمري القلبَ يفـعــلِ

3- وصف الليل، يقول في معلقته[16]

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَهُ عليَّ بأنواعِ الهُمومِ ليَبْتَلِي

4- رحلة الصيد ووصف الحصان، يقول الشاعر[17].

وقد أَغتَدِي والطَّيرُ في وكناتِهاَ بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

---

[11]-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص233.

[12]-المرجع السابق: ص236.

[13]-المرجع نفسه: ص237.

[14]-الزوزني عبد الله الحسن بن أحمد: شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، لبنان، دط، 2007، ص9،10،11.

[15]-المصدر نفسه: ص21،22.

[16]-المصدر نفسه: ص37.

[17]-المصدر نفسه: ص42،43.

مِكرٍّ مِفرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيلُ من عَلِ

5- وصف البرق والمطر، نقرأ ذلك في قوله[18].

أصاحِ تَرَى برقاً أُريكَ وميضَهُ كلمعِ اليدينِ في حَبِيّ مكلَّلِ

يضيءُ سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المفتَّلِ

يقف الشاعر في معلقته بمنزل الحبيب، ويصف الرسوم ويتحدث عن صلاته بصواحبه وأيام لهوه وسروره وبلائه في الحب وفتنته للغواني، ثم يصف الليل وما يثير في نفسه من مشاعر و يصف الوادي القفر وعواء الذئب فيه، والفرس والصيد والبرق والمطر والسيل.

ثانيا: معلقة زهير بن أبي سلمى:

هو زهير بن أبي سلمى بن رياح المزني فهو من مزينة، ومزينة من مضر عاصر الشاعر زهير الحرب التي نشبت بين عبس وذبيان، وقد دار شعره على التنفير من الحرب والدعوة إلى السلم، والإعجاب بسيدين من مرّة سعيا بالصلح بين عبس وذبيان، وهما: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وكان هرم كثير العطايا لزهير، وكان زهير يستحي منه حتى أنه قال: "عموا صباحا غير هرم وخيركم ما استثنيت" عاش زهير في بيت شعر، فأبوه ربيعة كان شاعرا وخال أبيه بشامة بن الغدير شاعر، وزوج أمه أوس بن حجر شاعر مضر، وكانت أختاه الخنساء وسلمى شاعرتين ثم كان ابناه كعب وبجير شاعرين، وكان حفيده عقبة بن كعب شاعرا[19] .

تتكون معلقة زهير من تسعة وخمسين بيتا تتضمن وصف الديار وارتحال الظعائن ومدح السيدين ووصف الحرب وإرسال الحكم، ومن أهم موضوعاتها:

1-الوقوف على الأطلال. يصور الشاعر الهدوء الذي انتاب الديار بعد ذهاب أهلها يقول[20]:

أَمِنْ أمِّ أوفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكلّمِ بِحَوْمانَةِ الدرّاجِ فالمتَثَلّمِ

ودارٌ لها بالرَّقْمَتَينِ كأنَّهاَ مراجيعُ وشْمٍ في نواشرِ مِعْصَمِ

---

[18]-المصدر السابق: ص53،54.

[19]-ينظر: محمد صبري الأشتر: العصر الجاهلي الأدب والنصوص المعلقات، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، حلب، سورية، دط، 1994، ص135.

[20]-الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص105.

بها العِينُ والأرآمُ يَمْشِينَ خِلْفةً وأطلاؤهاَ ينْهضْنَ من كلّ مَجْثِمِ

وقفتُ بها منْ بعدِ عشرين حِجّةً فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهُّـــمِ

2-وصف موكب الارتحال(الظعائن) يقول زهير[21]:

تَبَصَّرْ خليلي هلْ ترى منْ ظعائن تَحمَّلنَ بالعلياءِ من فوقِ جُرْثُمِ

جَعلْنَ القَنانَ عن يمينٍ وحُزْنَهُ وكم بالقنان مِنْ مُحِلّ ومُحْرِمِ

3- مدح رجال السلام والإصلاح. فبعد الوقوف على الأطلال والنسيب خلص إلى هدفه الأسمى وغرضه الأساس في المعلقة وهو مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان وهما سببا إيقاف حرب مدمرة عانى منها العرب طويلا فهما من أصلحا بين عبس وذبيان وتحملا ديات القتلى رغبة منهما في حقن الدماء وإيثارا للسلم يقول في هذا الغرض[22]:

فأقسمتَ بالبيتِ الذي طافَ حولهُ رجالٌ بَنَوْهُ من قريشٍ وجُرْهُـــمِ

يميناً لَنِعْمَ السَّيدانِ وُجِدْتُـــــمَا على كل حالٍ منْ سَحيلٍ ومُبْرَمِ

تداركتما عبْساً وذبيانَ بعدمـــــاَ تَفانَوْا ودقُّوا بينهم عطرَ مَنشـمِ

وقد قلتما إن نُدْرِكِ السِّلمَ واسعـاً بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نسْلَمِ

4-وصف الحرب. يقول في معلقته[23]:

وما الحربُ إلاّ ما عَلمتمْ وذُقتمُ وما هو عنها بالحديثِ المرَجَّمِ

متى تَبْعَثُوهاَ تبعثُوها ذَميـــمَةً وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُموها فتَضْـــرَمِ

5-الحكم. يقول في باب الحكمة[24]:

رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ منْ تُصـــبْ تُمْتْهُ ومن تُخطئْ يُعمَّرْ فيهرَمِ

ومنْ لم يصانعْ في أمورٍ كثـــــيرةٍ يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأ بمَنْسمِ

ومنْ يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ ومنْ لا يتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَـمِ

ومنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْـــــنَهُ وإنْ يَرْقَ أسبابَ السّماءِ بسلَّمِ

ومنْ يجعلِ المعروفَ في غير أهلـهِ يكنْ حمدُه ذمًّا عليهِ ويَنْدَم

---

[21]-المصدر السابق: ص108.

[22]-المصدر نفسه: ص112.

[23]-المصدر نفسه: ص116.

[24]-المصدر نفسه: ص124،125.

إن معلقة زهير بن أبي سلمى هي وقوف بديار أم أوفى، ووصف لآثارها وتصوير لارتحال الظعائن، ومدح السيدين الكريمين الذين أصلحا بين المتحاربين، ثم يستطرد في مدحهما إلى وصف الحرب، ثم يعود إلى المدح ويختتم القصيدة بإيراد بعض الحكم.

ثالثا– عنترة بن شداد العبسي:

هو عنترة بن شداد من قبيلة عبس إحدى قبائل مضر، ويعد أحد أغربة العرب وهم ثلاثة: عنترة بن شداد، وخفاف بن عمير، والسليك بن السلكة، تقدمه المصادر على أنه من أشجع العرب وأعلاهم همة وأعزهم نفسا، ويضرب به المثل كأنموذج الفتى الكامل المروءة والشجاعة شارك في حرب داحس والغبراء، أحب بنت عمه عبلة في شبابه ولكن عمه رفض زواجها منه لأنه كان عبدا في ذلك الوقت، فهو من زبيبة حبشية سوداء سباها أبوه في إحدى معاركه، وظل عبدا؛ لأنه كان من عادة العرب ألا يعطوا الحرية لأولاد الإماء، إلا أنه حصل على حريته من خلال أمجاده وفروسيته، فألحقه أبوه بنفسه وزوجه عبلة لأنه أصبح في عداد الأحرار[25].

معلقته مزيج من القوة والشجاعة والمروءة، تتكون من اثنين وثمانين بيتا تضمنت الموضوعات الآتية:

1–تحدث عن الأطلال والارتحال في قوله[26]:

هلْ غادرَ الشعراءُ منْ مُتَرَدَّمِ أم هلْ عرفتَ الدّارَ بعد توهُّمِ
يادارَ عبلةَ بالجواءِ تكلَّمي وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسْلَمِي
فوَقَفْتُ فيها ناقتي وكأنّها فَدَنٌ لأقْضِيَ حاجةَ المتَلَوِّمِ
حُيِّيتَ من طللٍ تقادمَ عهدُهُ أقْوَى وأقْفَرَ بعدَ أمِّ الهيثَمِ

وقد خلع على حبيبته أوصافا شتى تدل على مدى تعلقه بها وحبها له، فهي كالروضة الجميلة وثغرها في عذوبته كالمسك، نقرأ ذلك في قوله[27]:

إذْ تَسْتَبيكَ بذي غُروبٍ واضحٍ عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لذيذِ المطعمِ
وكأَنَّ فارةَ تاجرٍ بقسيمةٍ سبقتْ عوارضُها إليك منِ الفمِ

---

[25]–شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص172.

[26]–الزوزني: شرح المعلقات، ص197،198.

[27]–المصدر السابق، ص201،202.

أوْ روضةٌ أنُفاً تَضَمَّنَ نَبتُـــها غيثٌ قليلِ الدِّمَنِ ليسَ بمَعـــلَمِ

2-وصف الناقة، والناقة تعد مصدر فخر الشاعر، فلا بد من الحديث عنها في معلقته[28]:

هلْ تُبَلِّغَنِي دارَهَا شَدَنيَّةٌ لُعِنَتْ بمحرومِ الشرابِ مصرَّمِ

خَطارةٌ غِبَّ السُّرى زيَّافَةٌ تَطِسُ الإكَامَ بوخذِ خفٍّ مِيثَمِ

3-الاعتداد بالنفس وبشجاعته وأمجاده، نلمس هذه المعاني في قوله[29]:

لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهمْ يتذامرونَ كَرَرْت غيرَ مُذَمَّمِ

يَدْعُونَ عنترَ والرّماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ

مازلتُ أرْميهِمْ بثغرةِ نَحْرِهِ ولَبَانهِ حتى تسربلَ بالدَّمِ

سار عنترة في معلقته على درب شعراء المعلقات في تكوينها ومعانيها، بدأها بالوقوف على الأطلال فوقف بدار عبلة يصف آثارها ويعبر عن عاطفته ويصور عزم صاحبته على الرحيل، ثم يصف فمها ومتعة تقبيله وطيب رائحته، ويستطرد في هذا إلى وصف فرسه وناقته ثم يتمنى لقاء عبلة، ويتوسل بهذا إلى وصف ناقته التي ستبلغه دارها ثم يعود إلى خطاب عبلة مفتخرا بصفاته ومعتدا بنفسه متضمنا بعض الخلال التي تجعل منه شخصا مهما داخل قبيلته، كقوة صبره في المعارك وحضوره عند الشدائد.

فالمعلقة وقوف بدار عبلة وتغزل بها ووصف للطبيعة الصامتة والمتحركة وفخر بالنفس. والموضوعات التي تضمنتها قصائد المعلقات كثيرة ومتنوعة نحصرها في الموضوعات الآتية: وصف الأطلال، والنسيب، والخمر، المدح، والاعتذار، والفخر والحماسة، والوصف، والحكم والنظرات.

كما تمتاز المعلقة بجزالة اللفظ ومتانة التركيب، وتقوى الجزالة فيها حتى تدنو من الغرابة ففي وصف الأطلال، نجد أسماء مواضع الديار وهي أسماء لاصقة بماضي الشعراء وذكرى أحبابهم، ومن هنا اتسمت بالغرابة، كما نجد ألفاظا تصور آثار الديار وما بها من أحجار كالدمن والأطلال والرسوم والأواري والأثافي والنؤى والحوض كما جاء في قول زهير[30]:

---

[28]-المصدر نفسه، ص204.

[29]-المصدر نفسه، ص217،218.

[30]-المصدر السابق، ص105، 107.

ودارٌ لها بالرّقْمَـتينِ كأنَّها مراجيعُ وشمٍ في نواشرِ مِعـــصمِ

أثافيَّ سُفْعاً في مُعرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤْياً كجِذْمِ الحوضِ لم يَتَـــــلثَّمِ

ونجد ذكر الرياح والأمطار والسيول التي فعلت فعلها في الطلول من جنوب وشمأل وجود ورهام وسحابة سارية غاد مدجن...يقول لبيد بن ربيعة[31]:

رُزقْتَ مرابيعَ النُّجومِ وصابَـهاَ وَدْقُ الرَّواعِدِ جَودُها فرِهامُهاَ

منْ كلِّ ساريةٍ وغادٍ مُدْجِـــنٍ وعَشِيةٍ متجاوبٍ إرْزامُـــــهاَ

وجَلاَ السُّيولُ عنِ الطُّلولِ كأنَّهاَ زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُـــــــهاَ

ونجد أيضا ألفاظا تعبر عن القدم والخراب والفناء والتحول كالدروس والعفاء والتردم والتقادم والإقواء والأقفار والجدوب... كما جاء في قول عنترة[32]:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهمِ

حييت من طلل تقادم عهده أقوى أقفر بعد أم الهيـثمِ

وترد ألفاظا في النسيب تعبر عن عاطفة البين والشوق كالبكاء والعبرات والأسى والدموع وهي ألفاظ تطبع وصف الأطلال بطابع الحزن والأسى واللين والانكسار مثل قول امرئ القيس[33]:

قفَا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللّوى بين الدَّخُولِ فحَومَلِ

وقول طرفة بن العبد[34]:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيَّهُمْ يقولون لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَلَّدِ

ويقف قارئ المعلقة على مادة لغوية في وصف المرأة، فصاحبة امرئ القيس مهفهفة بيضاء غير مفاضة ذات خد أسيل غير فاحش ولا معطل، وفرع أسود فاحم أثيث، وغدائر مستشرزات إلى العلا، وكشح لطيف مخصر، يقول امرؤ القيس[35]:

وفرعٍ يَزينُ المتْنَ أَسْودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المتَعَثْـــــكلِ

غدائرهُ مُسْتَشْرِزاتٌ إلى العُلا تَضِلُّ العِقاصُ في مثنًى ومرسَـــلِ

---

[31]-المصدر السابق، ص133، 135.

[32]-المصدر نفسه، ص197، 198.

[33]-المصدر نفسه، ص9.

[34]-المصدر نفسه، ص66.

[35]-المصدر نفسه، ص32، 33.

التطبيق:

1- اقرأ القصائد التالية قراءة واعية .

2- حاول تحليل هذه القصائد انطلاقا مما تلقيته من المحاضرة.

3- عليك بحفظ عشرة(10) أبيات من كل معلقة.

قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول وحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سم ا رت الحي ناقف حنظل

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وان شفائي عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من معول

كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بجوزه وأردف أعجا ا ز وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غبارا بالكديد المركل

على العقب جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه إلي مرجل

يطير الغلام الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل

قال زهير بن أبي سلمى:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدُّ أَ رجِ فَالمُتَثَلَّمِ

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مراجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

بِهَا العِيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَة ... وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

وَقَفْتُ بها مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حجة ... فَلَأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

أَثَافِيَ سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلِ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا ... أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

تَبَصَّرْ خَلِيْلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ

جَعَلْنَ القَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَه ... وَكَمْ بِالقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ ... وراد حَوَاشِ يهَا مُشَاكِهَةُ الدَّمِ

سَئِمْتُ تَكَالِيْفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

وأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَه ... وَلكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِىء يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَة ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأ بِمَنْسِمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المعْروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يفره وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وَمَنْ يُوْفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُه ... إِلَى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَه ... وإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذَماً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُواً صَدِيقَه ... وَمَنْ لَمْ يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لَمْ يُكَرَّمِ

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مَنْ خَلِيقَةٍ ... وإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وَكَاءٍ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَو نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فؤادهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَاَنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بعده ... وإِنَّ الفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ

شعر الصعاليك:

تمهيد:

لكلمة الصعلوك معان متعددة في المعاجم اللغوية العربية ومن معانيها: الفقر والعوز والضمور والهزال، وفي لسان العرب: الصعلوك هو الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، كما تحمل اللفظة معاني قطع الطرق والاحتيال والخبث[36]. قال ابن سيدة (ت485هـ) في كتابه المحكم والمحيط الأعظم: الصعلوك الذي لا مال له وقد تصعلك، قال حاتم طئ:

غُنِينا زماناً بالتّصعلكِ والغِنَى فكلا سقاناهُ بكأسيهِما الدَّهرُ

وتصعلكت الإبل خرجت أوبارها وانجردت، ورجل مصعلك الرأس مدوّره، وصعلك الثريدة جعل لها رأسا[37] فالمعنى المباشر للصعلكة هو الفقر، أما المدلول الذي يستنبط من هذه التعاريف هو التجرد؛ لأن الفقر في الإنسان هو التجرد من الغنى، والمراد اللغوي من تصعلك الإبل هو تجردها من أوبارها، والسمة الأساسية في الصعلوك هي الفقر، وعندما نرجع إلى أخبار الصعاليك نجدها تتحدث عن فقرهم فكلهم فقراء، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذين كانوا يلجأون إليه كلما قست عليهم الحياة لا يجدون عنده مأوى لهم حتى يستغنوا، فالرواة يذكرون أنه كان فقيرا مثلهم[38].

والصعلكة في الاستعمال الأدبي وكما أقرها العرف العربي المتداول في كتب اللغة ومجامع الأدب والأخبار أن الصعاليك هم جماعة من العرب عاشوا في القفار يرافقهم الفقر والتشرد والتمرد والإغارة على البدو والحضر بقصد النهب والتخريب ثم يمضون إلى مخابئهم فلا يستطيع أحد اللحاق بهم لسرعة عدوهم، ولمعرفتهم بطرق الصحراء كما اتصفوا بصفات الصبر والاحتمال والشجاعة والقوة والكرم، فكانوا يقسمون غنائمهم على الفقراء ويساعدون الضعفاء والمحتاجين.

عوامل بروز الصعلكة في العصر الجاهلي:

هناك عدة عوامل جغرافية وسياسية واجتماعية واقتصادية أدت إلى بروز ظاهرة الصعلكة في شبه الجزيرة العربية في العصر الجاهلي منها: العامل البيئي الذي يتمثل في قسوة

---

[36]-ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (صعلك).

[37]-ينظر: ابن سيدة أبو الحسن بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج1،ص416.

[38]-يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص22.

الطبيعة واتساع الصحراء وشحها بالغذاء، إلى درجة الجوع الذي يهدد الإنسان بالموت، وإذا جاع الإنسان فلابد أن يتصعلك، ومنها: العامل السياسي المتمثل في وحدة القبيلة القائمة على العصبية ورابطة الدم، فللفرد على القبيلة أن تحميه وتهرع لنجدته حين يتعرض لاعتداء وله عليها بالمقابل أن يصون شرفها ويلتزم بقوانينها وقيمها، وأن لا يجر عليها جرائم تثقلها، وفشل الفرد في هذه الالتزامات قد يؤدي إلى خلعه والتبرؤ منه.

ومن الناحية الاجتماعية نجد أن تركيبة القبيلة تتشكل من طبقات وهي: طبقة الأحرار الصرحاء من أبناء العمومة، وطبقة المستجيرين الذين دخلوا في القبيلة من قبائل أخرى، ثم طبقة العبيد من أبناء الإماء الحبشيات، والحقيقة أن مجموعة كبيرة من الصعاليك هم من أبناء من هذه الطبقة المستلبة التي ثار الأقوياء من أفرادها لكرامتهم الشخصية مثل الشنفرى، وتأبط شرا، وعمرو بن براقة، والسليك بن السلكة، وعامر بن الأخنس وغيرهم...وكان يطلق عليهم أغربة العرب تشبيها لهم بالغراب لسواد بشرتهم.

أما العامل الاقتصادي فيعزى إلى أن حياة القبيلة في العصر الجاهلي كانت تقوم على النظام الإقطاعي الذي يستأثر فيه السادة بالثروة في حين كان يعيش معظم أفراد الطبقات الأخرى مستخدمين أو شبه مستخدمين، فظهر بين الأحرار أنفسهم نفر رفضوا أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان وخرجوا على قبائلهم بمحض إرادتهم لينتصروا للضعفاء والمقهورين من الأقوياء المستبدين والمستغلين، ومن أشهر هؤلاء عروة بن الورد الملقب بعروة الصعاليك.

والصعلكة هي ذلك الأسلوب العدواني الذي اتخذه بعض الفقراء والمعدومين من أجل الاستغناء نفي مواجهة الظروف الاجتماعية القاهرة السائدة آنذاك، ومن صفاتهم الإغارة. والغزو الذي هو إحدى سمات العصر وأحد وجوه الصراع القبلي، فهذه الطائفة لم تجد إلا الثورة على تقاليد المجتمع ونظامه. ويصنف الصعاليك إلى ثلاث مجموعات:

1-الخلعاء الشذاذ: هي مجموعة خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، ومن هؤلاء حاجز الأزدي، وقيس بن الحَدادية، وأبو الطمحان القيسي.

2-أبناء الحبشيات السود: هم الذين نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم ومن هؤلاء، السُلَيْك بن السُّلَكة، وتأبط شرا واسمه ثابت بن جابر من قبيلة فهم، والشنفرى واسمه

ثابت بن أواس تربى في قبيلة أمه فهم العدنانية، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا باسم أغربة العرب.

3-مجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الإماء، غير أنها احترفت الصعلكة ومنهم: عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتان كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف[39].

تذكر المصادر أن كل الصعاليك يشتركون في صفات منها: أنهم يحسنون العدو وركوب الخيل والإغارة عليها، ويقال إنه كان للسُّليك فرس يسمى النَّحام، وللشنفرى فرس يسمى اليحموم، ولعروة فرس أيضا يسمى قَرْمَل، فكانوا يغيرون أحيانا فرادى وأحيانا جماعات على مناطق الخصب ويرصدون طرق القوافل التجارية وطرق الحجاج القاصدة إلى مكة[40].

يتغنى هؤلاء الصعاليك في أشعارهم بمغامراتهم ويتمدحون بالكرم كما يوجد فيهم صفة البر بالأقارب والأهل، كما يتصفون أيضا بصفات الترفع والشعور بالكرامة في الحياة، يقول أبو خراش الهذلي[41]:

وإنّي لأُثْوي الجوعَ حتّى يَمَلَنِّي ... فيذهبَ لم يدنسْ ثيابِي ولا جِرْمِي

وأغْتَبِقُ الماءَ القَراحَ فأنْتَهِي ... إذا الزّادُ أمْسَى للمُزلَّجِ ذا طَعْمِ

أَرُدُّ شجاعَ البطنِ قد تَعْلَمينَهُ ... وأوثرُ غيرِي من عيالِكِ بالطُّعْمِ

مخافةَ أنْ أحيا برغمٍ وذِلّةٍ ... وللموتِ خير من حياةٍ على رَغْمِ

يفتخر الشاعر لزوجه بأنه يصبر على الجوع حتى ينكشف عنه دون أن يلحقه فيه ضيم، وأنه يكفيه الماء القراح(الصافي) بينما يتّخم من حوله أشحاء النفوس بالطعام، أما هو فإن وجد الطعام آثر به غيره من أولاده وعياله ويصنع كل ذلك حتى لا يوصم بعار الذل.

3-الشنفرى:

هو من عشيرة إواس الأزدية اليمنية قحطاني النسب، واسمه يدل على أنه غليظ الشفاه وقيل إنه من قبيلة سلامان وقد هجرهم وحقد عليهم بعد اكتشافه أنه ليس منهم، ولم

---

[39]-ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص375.

[40]-ينظر المرجع السابق، ص 376، 377.

[41]-المرجع نفسه، ص376.

ينشأ في قبيلة الأزد بل في قبيلة فهم، عرف بالعدو حتى ضرب به المثل "أعدى من الشنفرى"[42] والذي روضه على الصعلكة تأبط شرا لما كان يغير معه وما زال يغير على الأزد حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا انتقاما لأبيه قبل أن يرصدوا له كمينا فيقع فيه ويقتل[43] له ديوان شعري

ومن أشهر قصائده لاميته التي تصور حياة الصعلوك في العصر الجاهلي، له أيضا التائية الطويلة التي رواها المفضل الضبي في مفضلياته، يقول في تائيته[44]:

فبِتْنا كأَنَّ البيتَ حُجِّرَ فوقـــــنَا بريحانةٍ رِيحَتْ عشاءً وطُــلَّتِ
وباضِعةٍ حُمْرِ القِسيِّ بَعَثْتُـــــهاَ ومنْ يَغْزُ يغْنَمْ مرةً ويُشَـــمَّتِ
خرجنَا منَ الوادِي الذي بينَ مِشْعَلٍ وبينَ الجَبَا هيهاتَ أنشأتُ سُرْبَتِي
أُمَشِّي على الأرضِ التي لنْ تَضُرَّنِي لأنْكِي قوماً أو أُصادفَ حُمّــتِي

ويتحدث أيضا عن أهداف غارته في بني سلامان حيث يأخذ ثأره لأبيه في قوله[45]:

قتلناَ قتيلاً مُــحْرِماً بمُلـــــبَّدٍ جِمارَ مِنىً وسْطَ الحجيجِ المصوِّتِ
جَزينَا سلامانَ بنَ مُفْرِجِ قَرْضَها بما قدمَــتْ أيديـــهُمُ وأزلَّــتِ
وهُنِّئَ بي قومٌ وما إنْ هنَّأتـــهُمْ وأصبحتُ في قومٍ وليسَوا بمنبـتِي
فإنْ تُقْبلوا تُقْبلْ بمنْ نيلَ مِنْــهُمُ وإنْ تُدبروا فأمُّ منْ نِيلَ فــتِّتِ
شَفَيْنا بعبدِ اللهِ بعضَ غَليلَناَ وعَوْفٍ لدى المِعْدى أَوانَ اسْتهلَّتِ

يصرح بأنه جازى بني سلامان بما قدمت أيديهم لما بينهم وبينه من ثار وقد شفى غليله بقتل رجلين منهم.

مضامين شعر الصعاليك:

تتضمن قصائد الشعراء الصعاليك عدة موضوعات أهمها:

---

[42]-الشنفرى عمرو بن مالك: الديوان، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان،ط2، 1996،ص10، 11، 12.

[43]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص380.

[44]-الشنفرى: الديوان، ص 34،35.

[45]-المصدر نفسه، ص37.

أ–أحاديث المغامرة: إن حياة الصعاليك كلها مغامرات، لأنها تتخذ من الغزو والإغارة والسلب والنهب أسلوبا في حياتهم لذلك كثيرا ما يتحدثون في شعرهم عن هذه المغامرات وكيفية تحقيق غايتهم والاحتفاء ببطولاتهم ومقدرتهم من النجاة من بعض الأخطار التي يواجهونها، يقول الشنفرى[46]:

فثارُوا إلينَا في السَّوادِ فهَجْهَجُوا وصَوَّتَ فينا بالصَّباحِ المثَوِّبُ
فشَنَّ عليهِم هِزَّةَ السَّيْفِ ثابتٌ وصمَّمَ فيهِمْ بالحسامِ المسيَّبُ
وظلْتُ بفتيانٍ معِي أتَّقيـــهُمُ بهنَّ قليلاً ساعةً ثمَّ خيَّبُوا
وقدْ خَرَّ مِنْهُم راجلانِ وفارسٌ كميٌّ صَرعْناهُ وقَرْمٌ مُسلَّبُ
يَشُنُّ إليهِ كلَّ ريعٍ وقلْعَةٍ ثمانيةً والقومُ رَجْلٌ ومِقْنَبُ

ب–شعر المراقب: كثيرا ما يتحدث الشعراء عن تربصهم بأعدائهم وترصدهم لضحاياهم وترقبهم للفرصة الملائمة لمهاجمتهم في الأماكن الوعرة، وفي مضايق الطرق، وفي الكمائن المحكمة حيث لا يرونهم. يقول تأبط شرا[47]:

إذا الحربُ أولتكَ الكليبَ فولِّهَا كَليبكَ واعْلمْ أنَّها سوفَ تنْجلي
ومَرْقَبَةٍ يا أمَّ عمْرو طِمِرَّةٍ مذبذبةٍ فوقَ المراقبِ عَيْـــطَلِ
نَهضْتُ إليهاَ منْ جثومٍ كأنَّهَاَ عجوزٌ عليها هِدْمِلٌ ذاتُ خيْـــعَلِ

والمرقبة عند الشاعر ذات صورة طريفة تعلو سائر المراقب، وهي معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية ومع ذلك ما إن ينتصف الليل حتى ينهض ليبدأ في تنفيذ خططه.

ج–التهديد: يتحدث الصعاليك عن الوعيد والتهديد لأعدائهم، وقد كانوا يوجهون تهديدهم لقبائل بعينها فيتوعدونهم، وفي هذا المعنى قول تأبط شرا[48]:

رَأَى قدميَّ وقْعُهَما حثيثٌ كتحليلِ الظليمِ دعَا رئالهْ
رأَى بهِماَ عَذاباً كلَّ عامٍ لخَثْعَمَ أو بجِيلةَ أو ثَمَـــالَهْ
وشرٌّ كان صُبَّ على هُذَيلٍ إذا عَلِقَتْ حِبَالهُمْ حبـــالَهْ

---

[46]–المصدر السابق، ص28.

[47]–تأبط شرا: الديوان، تحقيق علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ط1984،1 ص180، 181.

[48]– المصدر نفسه، ص198.

فتأبط شرا لا يقنع بغير غزو خثعم وبجيلة وثمالة وهذيل، وهو يرجع الفضل في كل هذا كله إلى قدميه اللتين أودع الله فيهما عذابا وشرا يصبّهما عليهم.

د–وصف الأسلحة: تتضمن قصائد الشعراء الحديث عن أسلحتهم فهي وسيلتهم التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة أبدانهم التي أساس حياتهم، كما يصفون أسلحتهم التي ترافقهم دائما: كالسيف والرمح والقوس والسهام والدروع، يقول الشنفرى[49]:

وأبيضُ من ماءِ الحديدِ مُهنَّدٌ مُجِذٌّ لأطرافِ السَّواعدِ مِقْطَفُ

وحمراءُ من نبع أبيٌّ ظهيرةٌ تُرِنُّ كإرنانِ الشَّجيّ وتهتـفُ

هـ–الحديث عن الرفاق: يتحدث الشعراء عن رفاقهم أثناء المغامرات وعن الأدوار التي يقوم بها كل فرد، ومن بين الألفاظ نجد لفظ الرجل والسربة والمقنب والفتيان والأصحاب والصحب والقوم وهذا المعجم يدل على الجماعة التي يتكلم عنها الشنفرى[50]:

سراحينُ فتيان كأَنَّ وجوهَـــهُمْ مصابيحُ أو لونٌ من الماءِ مُذْهَبُ

نمُرُّ برهو الماء صفحا وقد طوت شمائلنا والزَّاد ظـنٌّ مغـــيَّبُ

و–سرعة العدو والفرار: يتحدثون أيضا عن هروبهم وفرارهم وعن سرعة عدوهم وكثيرا مايحسبونها صفة يتفردون بها عن غيرهم وأنها من الأسباب التي تنجيهم أثناء تعرضهم إلى المخاطر لذلك يفخرون بهذه الصفات. يقول أبو خراش الهذلي[51]:

فإنْ تزعُمي أنِّي جَبُنْتُ فإنّنِي أفرُّ وأرْمي مَرَّةً كلَّ ذلـــــكِ

أقاتلُ حتَّى لا أرَى لي مُقاتلا وأنجُو إذا ما خفتُ بعضَ المهالكِ

فالفرار لا يدل على جبنه، لأنه إلى جانب فراره هو مقاتل شجاع، وأحيانا تراه يلجأ إلى الفرار عندما يقتنع بأن قتاله لا يجديه نفعا، فيصبح الفرار ملجأ وقرارا حكيما يجنبه المهالك.

ز–التشرد: إذا كان الصعاليك يعيشون في صحراء مترامية الإطراف أرجاؤها واسعة وموحشة ووديانها مخيفة، فإنهم قد تحدثوا عن تشردهم في هذه الفلوات، واتخذوا ذلك مصدرا للفخر والاعتداد بأنفسهم، وباهتدائهم في هذا الفضاء الواسع. يقول تأبط شرا[52]:

---

[49]–الشنفرى: الديوان، ص54،53.

[50]–المصدر السابق، ص28.

[51]–ديوان الهذليين: تحقيق أحمد الزين ومحمود أو الوفاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1965، ج2، ص169.

يَبيتُ بمَغْنَى الوحشِ حتى أَلِفْنَهُ ويصبحُ لا يَحْمِي لهَا- الدَّهرَ- مرْتَعَا
على غِرةٍ أو جَهْرةٍ منْ مَكانِسٍ أطالَ نزالَ الموتِ حتَّى تَسَعْسَعَا
رأيْنَ فتًى لا صيدُ وحشٍ يهِمُّهُ فلوْ صافَحَتْ إنْساً لصافَحَنَهُ مَعَا

يفتخر بامرأة خطبها فامتنعت عليه، لأنه لطول تشرده ألفته وحوش الصحراء واطمأنت إليه حتى لتوشك أن تصافحه.

التطبيق:

1-اقرأ لامية الشنفرى واستخرج منها أهم خصائص شعر الصعاليك.

2- أحفظ منها عشرة(10) أبيات.

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيكُمْ فَإِنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَل
فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللَّيْلُ مُقْمِرٌ وَشُدَّتْ لِطِ ياتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وفي الأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
لَعَمْرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِىءٍ سَرَى راغبا أَوْ راهبا وَهْوَ يَعْقِلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُون : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ لَدَيْهِمْ وَلاَ الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ
وَكُلُّ أَبِيٌّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنَّنِي إذا عَرَضَتْ أُولَى الطرائد أبْسَلُ
وانْ مُدَّتِ الأَيْدِي إلى الزاد لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إذْ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَلُ
وَمَا ذَاكَ إلا بَسْطَةٌ عَنْ تَفَضُّلٍ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الأَفْضَلَ المتَفَضِّلُ
أُديمُ مِطَالَ الجُوعِ حتى أُمِيتَهُ وأَضْرِبُ عَنْه الذِّكْرَ صَفْحاً فأُذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ
ولولا اجْتِنَابُ الذَأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ به إلا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلكِن نَفْسَاً مُرَّةً لا تُقِيمُ بي على الذامِ إلاَّ رَيْثَما أَتَحَوَّلُ
وَأَطْوِي على الخَمْصِ الحَوَايا كَما انْطَوَتْ خُيُوطَةُ مارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ
وأَغْدُو على القُوتِ الزَهِيدِ كما غَدَا أَزَلُّ تَهَادَاهُ التنَائِفَ أَطْحَلُ
غَدَا طَاوِياً يُعَارِضُ الرِّيحَ هَافِياً يَخُوتُ بأَذْنَابِ الشِّعَابِ ويُعْسِلُ

---

[52]-تأبط شرا: الديوان، ص،115،116،117.

الشعر في صدر الإسلام.

تمهيد:

المراد بعصر صدر الإسلام الفترة الزمنية الممتدة بين بعثة النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- وبين قيام الدولة الأموية سنة أربعين(40هـ) للهجرة، وقد أحدث القرآن الكريم في هذه الفترة تأثيرا كبيرا في حياة العرب، ونقلهم من البداوة إلى الحضارة، ومن مجتمع القبيلة إلى حياة الأمة. لأن العرب كانت أمة ممزقة انتشرت في شبه جزيرتهم الحروب والنزاعات وكانت أمة يسودها الجهل، تنتشر بها الخرافة والعقائد الفاسدة كما تنتشر فيها العادات السيئة كشرب الخمر ولعب القمار ووأد البنات والقتل والنهب والغزو، كما كان فيهم بعض الخرافات مثل الكهانة والعرافة والتشاؤم والتنجيم وغيرها.

والمعروف أن الشعر الجاهلي في كثرته كان قبليا يستوحي في أغراضه وموضوعاته نزعة العصبية القبلية، ويهتدي بهديها، وكانت الحياة الجاهلية تقوم على الجهل والتطاول والبغي والشرك وعبادة الأصنام إلى غير ذلك من المظاهر التي اتسم بها العصر، فلما جاء الإسلام قضى على كل هذه العادات وحث على الإخاء والتضحية، أسس مجتمعا يقوم على العدل والمساواة وكرم المرأة وكفل حقها وجعل من الإسلام أمة قيم ومثل عليا. أحدث بذلك انقلابا في كل مناحي الحياة، فأخرج العرب من الظلمات إلى النور ومن القبيلة إلى أفاق الدولة والأمة، ورسم لهم طريقا جديدا، وعمل القرآن بتعاليمه على تهذيب الأذواق، وزاد في رقيها ورقق ألفاظ اللغة وأبعدها عن الجفاء والغلظة، وحول أساليبها إلى العذوبة والسلاسة، فتأثر الكثير من الأدباء بأسلوب القرآن وبمضامينه، فنهلوا من معانيه التي وسعها القرآن.

أصبح الأدب في صدر الإسلام ذو معان واسعة متعددة الألفاظ والأفكار والمعاني لتأثرها بالقرآن وبالحديث الشريف، وأصبح الأدب الإسلامي أشد التصاقا بالنفس كما خلص الإسلام الأدب من الشوائب السابقة كالعصبية والغزل الفاحش والهجاء المقذع ووصف الخمرة...

لم يحارب الإسلام كل الشعر؛ بل حارب الفاسد منه ولهذا صنف القرآن الشعراء إلى فئتين فئة ضالة وأخرى مهتدية يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ((والشعراء يتبعهم الغاوون ألم

ترى أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)) (سورة الشعراء: الآيات 224،225،226،227).

ولقد ورد مصطلح الشعر في كثير من الآيات من القرآن الكريم التي تحمل دلالات نفي الشعر عن النبي–صلى الله عليه وسلم– ونفي للشعر عن القرآن، وتأكيدا لمصدره الإلهي ودفعا لادعاءات المشركين الذين قالوا بأنه شعر جاء به محمد واتهموه بأنه شاعر وجاء ذلك في قوله تعالى: ((وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين))(سورة يس: الآية 69)كما نفى الشاعرية عن الرسول محمد بقوله: ((وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون))(سورة الحاقة: الآية41) فالقرآن الكريم في صوغه وأسلوبه مختلف عن الفنون القولية الأخرى التي كانت شائعة، فهو صورة بيانية فريدة تبعد كل البعد أن تكون شعرا أو سجعا كسجع الكهان[53].

ولا شك أن طائفة من الشعراء الجاهليين اعتنقت الإسلام وانخرطت تذب عن هذا الدين الجديد، وخدمت قضاياه، ومن أهم هؤلاء الشعراء: حسان بن ثابت الذي سخر كل جهوده لخدمة الإسلام فهجا قريشا هجاء مرا، كعب بن زهير، ومتمم بن نويرة وكعب بن مالك والنابغة الجعدي ...

شعر الفتوحات:

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله لنشر الإسلام، فاستولوا على الشام ومصر، وكانوا في أثناء هذه المعارك ينظمون أناشيد حماسية يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم، وهذا الشعر الذي قيل في هذه الوقائع أطلق عليه شعر الفتوحات وهو شعر يهدف إلى الإشادة بإقدام وشجاعة الجند أمام قسوة المعارك وضراوة القتال[54] وهو شعر يرتبط بالمعارك ويصف الحياة الجديدة بعد الإسلام، كما يرسم أيضا صور الفروسية الإسلامية في الإطار الجديد الذي وضعه الإسلام لتقاليدها وقيمها من إيمان قوي وتصديق عميق بما وعد به المجاهدون، كما يرسم الكثير من الصور التي صاحبت المسلمين في ساحات الوغى وزحمات القتال.

---

[53]–مصطفى هدارة: الشعر في صدر الإسلام والعصر الأموي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1995، ص74.

[54]–ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص62.

يتميز هذا الشعر بصدوره عن مشاعر صادقة ارتبطت بمناسبات تاريخية مهمة في حياة المسلمين كانتصارهم في المعارك ، أو تحفيز الجيش لخوض القتال أو رثاء قتلى المسلمين أو الحنين إلى الأهل والأبناء، لذلك فشعر الفتوحات تكمن قيمته في كونه وثيقة تاريخية سجلت أيام المسلمين[55] ووقائعهم بما تضمنه من موضوعات وأغراض متنوعة كالفخر والهجاء والرثاء والوصف والحنين بمضامين توافق وتستجيب لقيم الإسلام.

أغراض الشعر في صدر الإسلام:

تعددت أغراض الشعر في صدر الإسلام فمنها ما كان مألوفا من قبل، ومنها ما كان جديدا ومن أهم تلك الأغراض نذكر ما يلي:

1-الوعظ ونشر العقيدة:

يقول الصلصال بن الدِّلْهَمَس بن جندلة[56]:

تَجَنَّبْ خليـــطاً منْ مقالِكَ إنَّمَاَ قرينُ الفَتَى في القـبرِ ما كانَ يفعلُ
ولابدّ بعدَ الموتِ منْ أنْ تعـــدَّهُ ليومٍ ينادي المـرءُ فيه فيُقْـــــبِلُ
وإن كنتَ مشغولاً بشيءٍ فلا تكنْ بغيرِ الذي يَرضَى به اللهُ تُشْـغَلُ
ولن يصحبَ الإنسانَ من قبل موتِهِ ومن بعدهِ إلا الذي كان يعـــملُ
ألا إنما الإنسانُ ضيفٌ لأهـــلهِ يقيمُ قليلاً بينهم ثم يرحـــــلُ

قال الشاعر هذه الأبيات لوفد من بني تميم، والرسول –صلى الله عليه وسلم– كان حاضرا والقصيدة حث على الصدق والتحذير من عذاب القبر، فلا ينفع الإنسان إلا العمل الصالح كما تحض على تقوى الله والعمل بما يرضي الله عز وجل، وواضح أن العقيدة الإسلامية متأصلة في نفس الشاعر وأنه يسعى إلى إقناع الآخرين بهذه القيم. ويقول النابغة الجعدي[57]:

الحمدُ للهِ لا شريكَ لهُ منْ لمْ يَقلْهَا فنفسَهُ ظـلـماَ
الموجِ الليلَ في النّهارِ وفي الليلِ نهاراً يفرّج الظُّلـــماَ

---

[55]–ينظر: النعمان عبد المتعال النعمان: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ،دط، 1965، ص241.

[56]–واضح محمد: أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص113.

[57]–النابغة الجعدي: الديوان، تحقيق واضح الصمد، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص147، 148.

الخافضِ الرّافعِ السماءَ على الـ ـأرضِ ولمْ يبْنِ تحتهَا دِعَمـــاَ
الخالقِ البارئِ المصورِ في الـ ـأرْحَامِ ماءً حتّى يصيرَ دَمـــاَ
من نطفةٍ قدَّهَا مُقَدِّرُهَا يَخْلقُ منهَا الأَبشارَ والنَّسماَ
ثم عِظاماً أقامَها عَصَبٌ ثُمَّتَ لحْماً كساهُ فالْتَأَمَا

ينظم هذا الشاعر الصحابي شعرا، ونلاحظ أن كتاب الله قد ملك حواسه جملة، فما ينظم هؤلاء يكاد يكون ترجمة لألفاظ ومعاني آيات الله تعالى.

2- الفخر والمديح:

الفخر والمدح من أغراض الشعر قبل الإسلام وبعده، لكن القيم التي كانت تدفع الشاعر الجاهلي إلى هذا الغرض تختلف كثيرا عن القيم التي زرعها الإسلام في نفوس المسلمين. فهذا علي بن أبي طالب يفتخر بصلته برسول الله، وبسبق أهله إلى الشهادة في سبيل الله، وأنه كان سباقا إلى الإسلام رغم حداثة سنه نلمس ذلك في قوله[58]:

محمدٌ النَّبِي أخِي وصِهْرِي وحمزةُ سيّدُ الشّهداءِ عمّـي
سَبقتُكم إلى الإسلامِ طُرًّا صغيراً ما بلغتُ أوانَ حِلْمِي

ويقول حسان بن ثابت[59]:

أغرُّ عليهِ للنُّبوَّةِ خاتـــــَمٌ من اللهِ مَشهودٌ يَـلوحُ ويَشْـــهَدُ
وضمَّ الإله اسْمَ النَّبِي إلى اسْمِه إذا قالَ في الخَمْسِ المؤذِّنُ أشْـهدُ
وشقَّ له من اسْمِهِ ليُجِـــــلَّهُ فذو العرش محمود وهذا محـمـّدُ
نبيٌّ أتاناَ بعدَ يأسٍ وفتـــــرةٍ مِنِ الرُّسلِ والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ
فأمْسى سِراجاً مُستنيراَ وهادِياً يلوحُ كما لاحَ الصَّقيلُ المـهنَّـدُ
وأنْذرنا ناراً وبشَّـرَ جنَّـــــةً وعَلَّمَنا الإسـلامَ فاللهُ نحْـــمَدُ
وأنتَ إلهَ الخلقِ ربِّي وخالقِي بِذلكَ ما عَمَّرتُ في النَّاسِ أشْهدُ

تتجلى المعاني الإسلامية في هذه الأبيات، وتعكس روح الشعر في هذه الفترة، وهذا كعب بن زهير يمدح رسول الله في لاميته المشهورة في قوله[60].

58-واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ص117.

59-حسان بن ثابت: الديوان، شرح وتقديم عبدا مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص54.

60-كعب بن زهير: الديوان، تحقيق علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1997، ص65.

أُنْبِئْتُ أنّ رسولَ اللهِ أوْعَدَنِي والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأْمولُ

مهلاً هَداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الـــ ـقرآنِ فيها مواعيظُ وتفصيلُ

ويقول في نفس القصيدة[61]:

إنَّ الرَّسولَ لسيفٌ يُسْتَضاءُ بهِ مُهَنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

في عُصْبَةٍ من قريشٍ قالَ قائلهُم ببطنِ مكّةَ لما اسْلـــمو زولُوا

يمدح كعب رسول الله بالعفو وهذا من شيم الكرم، وهو لا شك واجده عنده، ويعتذر عما بدر منه من قبل أن يفد عليه، ومعظم شعر المديح جاء في مدح الرسول، وأن مضامينه هي في الفخر برسالة الإسلام التي أوحى بها الله إلى النبي الكريم.

3-الجهاد والمعارك:

لم يكن الشعر بعيدا عن الصراع بين المسلمين والمشركين؛ بل كان في صلب المعارك التي أسهمت في تنشيط حركة الشعر في تلك الفترة، وهذا ما يلاحظ جليا في شعر الشعراء المخضرمين، وكان من نتائجه بروز المناقضات بين شعراء قريش في مكة وبين شعراء الأنصار في المدينة، ولا بد أن نشير إلى أن المسلمين كانوا ينظمون أناشيد حماسية في شعر الفتوحات ويتغنون فيها بانتصاراتهم. وتذكر المصادر أن الشاعر أبا مِحْجَن الثقفي كان مولعا بالخمر فحبسه سعد بن أبي وقاص حتى إذا احتدمت المعركة توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلق سراحه –على أن يعود إلى قيده- ليسهم في شرف المعركة، وكان له ذلك، وبلى في هذه المعركة بلاء حسنا، وعاد إلى سجنه وهو ينشد الشعر:[62]

لقدْ علِمَتْ ثقيفٌ غيرَ فخرٍ بأنّا نحنُ أكرمُهُم سُيــوفاَ

فإنْ أحبسْ فقدْ عَرفوا بَلائِي وإنْ أطلقْ أجرِّعْهُم حُتوفاَ

وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحو برؤوسهم وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم، ومن شعره[63]:

والقادسيةُ حينَ زاحمَ رستم كنَّا الحماةَ بهنَّ كالأشْطانِ

---

[61]-المصدر نفسه، ص67.

[62]-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص62.

[63]-المرجع نفسه، ص62.

الضَّاربينَ بكلِّ أبْيَضَ مخدمٍ والطَّاعنينَ مجامعَ الأضْغانِ

هذه لمحات بسيطة عن شعر الجهاد والمعارك والفتوح، وأن ما تطفح به كتب الصحابة مثل كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب للحافظ بن عبد البر، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، وكتب التاريخ مثل تاريخ الطبري، وابن الأثير، وكتب الأدب مثل الأغاني للعماد الاصفهاني، وكتب الجغرافيا مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، ليؤلف بذلك العرب في الفتوح ملحمة كبيرة يصور فيها الشعر هذه الإحداث، كما يصور هجرة القبائل العربية من مواطنها إلى الأصقاع المفتوحة[64] كما يتحدث عن الإبطال الذين أسهموا في تلك الحروب والانتصارات.

4-الرثاء:

غرض الرثاء من أكثر الأغراض الشعرية التصاقا بالنفس لأنه يصدر عن نفس منكسرة متألمة، والشاعر لما طبع عليه من رقة الحس وإرهاف الشعور وسرعة الانفعال بالأحداث تهزه الفواجع، فيعبر عن تأثره بالشعر، ويصف الفجيعة ويصور مشاعره إزاءها، لذلك كان الرثاء واحدا من الأغراض الرئيسية على مدى العصور.

إذا كان الرثاء في الجاهلية عبارة عن ذرف الدموع، وأسى في القلوب، وحدادا على الأموات ووعدا بالثار والانتقام، فإن الرثاء في الإسلام يختلف في بعض جوانبه عما سبق لأن الشاعر في هذه الفترة ملتزم بعقيدة دينه التي تحدد له أبعاد الرثاء ضمن القيم والمعاني الإسلامية، فقد يتسابق المسلمون إلى الموت والشهادة في مجالات الجهاد فيكون الموت مفخرة من المفاخر التي يعتز بها المسلم، فهذه الخنساء أميرة الرثاء في الجاهلية والتي عاظمت العرب بمصيبتها بابنها وأخويها، وبدت القروح في عينيها من البكاء عليهم هي نفسها أدركت الإسلام وشهدت حرب القادسية، ومعها بنوها أربعة رجال تحثهم على القتال والاستماتة في سبيل الله ،فاستشهدوا جميعا فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم[65].

---

[64]-واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ص125..

[65]-ينظر: واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، ص126.

وظل الرثاء مزدهرا في العصر الإسلامي لاستمرار المعارك الدامية بين المسلمين وغيرهم فيرثي المسلمون شهداءهم ويبكي المشركون قتلاهم، ومن بين الشواهد الشعرية في هذا الفن نذكر قول حسان بن ثابت في رثاء الرسول –صلى الله عليه وسلم–[66]:

بطَيْبَةَ رسمٌ للرّسولِ ومعهدُ منيرٌ وقد تعفُو الرسومُ وتَهْمَدُ

ولا تَنْمحِي الآياتُ من دارِ حرمةٍ بهاَ مِنْبرُ الهادي الذي كانَ يَصْعدُ

وواضحُ آياتٍ وباقِي مَعالِمٍ ورَبْعٌ لهُ فيهِ مُصلًّى ومَسجدُ

بها حُجراتٌ كان ينزلُ وسْطَهاَ من اللهِ نورٌ يستضاءُ ويُوقدُ

ويروى أنه لما تم دفن الرسول –صلى الله عليه وسلم– ورجع الناس إلى ديارهم رجعت فاطمة الزهراء إلى بيتها. وقالت أبياتا في رثاء أبيها[67]:

فليبكه شرق البلاد وغربها وليبْكهِ مضر وكلّ يمانِ

يا خاتم الرسل المبارك ضوءه صلّى عليك منزل القرآنِ

ولم يكن الرثاء مقصورا على الرسول والخلفاء الراشدين؛ وإنما كان غرضا من أغراض الشعر في صدر الإسلام.

5–الهجاء:

الهجاء من الأغراض الشعرية التي مارسها الشعراء العرب في الجاهلية، وكانوا يتعرضون فيه للأعراض وذكر المثالب والعورات، ويعيّرون بعضهم بالأيام، وجاء الإسلام وناصب المشركون ومن والاهم من الأعراب واليهود عداء شديدا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وكان لشعراء الهجاء دور في إذكاء تلك العداوات، فهاجموا الرسول وأصحابه، وكان لا بد من ردعهم، فسمح الرسول لشعراء المسلمين بالرد عليهم، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الذي دافعوا عن الإسلام بشعرهم حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم ويهجوانهم بمثل قولهم بالوقائع والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، كما كان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر. وهذا الهجاء لا يتعلق بشخص وإنما يتعلق بالدعوة الإسلامية فكان

---

[66]–حسان بن ثابت: الديوان، ص60.

[67]–الحصري القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1953، ج1، ص70.

لابد من الذود عن حمى الإسلام بسلاح الشعر باعتباره الوسيلة الإعلامية المؤثرة في عقول القوم، يقول حسان بن ثابت:[68]

لنَا فِي كلِّ يـومٍ منْ معـــدٍّ سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فنُحْكِمُ بالقوافِي مَنْ هَجـانَا ونَضْرِبُ حين تختلطُ الدِّماءُ
ألا أبْلغْ أبا سفيانَ عنـــيّ فأنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هــواءُ
بأَنَّ سيوفَنا تَرَكَتْكَ عَبْـــداً وعبدَ الدَّارِ سادَتُها الإماءُ
هجوتَ محمداً فأجبـتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاكَ الجـــزاءُ
أَتَهجوه ولستَ لهُ بِكُـــفْءٍ فشرُّكُماَ لخيرِكُما الفداءُ
هجوتَ مباركاً برًّا حنيـــفاَ أمينَ اللهِ شيمتُه الوفاءُ
فمَنْ يَهْجُو رسولَ اللهِ منكم ويَمدحُه وينصرُه ســواءُ

ج-بعض هذا الشعر ضل محافظا على تقاليد القصيدة الجاهلية وخاصة ما تعلق ببنيتها الفنية كالمقدمة الطللية، نلاحظ ذلك في مقدمة قصيدة لحسان بن ثابت:[69]

هَلْ رَسْمُ دارِسَةُ المقامِ يَبابِ مُتَكلِّمٌ لمحاوِرٍ بجـــوابِ
ولقد رأيتُ بها الحلولَ يُزيِّنُهُم بِيضُ الوجوهِ ثواقِبُ الأحْسابِ
فَدَعِ الدِّيارَ وذكرَ كلِّ خريدةٍ بيضاءَ آسنةِ الحديثِ كِعـابِ

د-وما يسجل أيضا في شعر هذا العصر هو الابتعاد عن القصيدة المركبة مثل ما هو الحال في قصائد الشعر الجاهلي وقصائد المعلقات خصوصا في بنائها المحكم من مقدمة طللية ووصف للرحلة وما يصاحب ذلك من تعدد في الأغراض، أما قصائد شعر صدر الإسلام فاتسم أغلبها بوحدة الموضوع، والذي لا شك فيه أن الانتقال الفني من عصر الجاهلية إلى عصر صدر الإسلام كان له عظيم الأثر، فقد أخذ الشعراء يتأثرون تأثرا واضحا بفيض من المعاني الدينية الجديدة والأساليب القرآنية وتعاليم الدين الجديد[70].

---

[68]-حسان بن ثابت: الديوان، ص20.

[69]-حسان بن ثابت: الديوان، ص22.

[70]-ينظر: مصطفى السيوفي: تاريخ الأدب في صدر الإسلام، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة،مصر، ط1، 2008، ص84.

هـ-تبرز في الشعر الإسلامي بعض الخصائص الجديدة التي طبع به الشعر، ومنها تضمنه أساليب القسم والدعاء والقصص القرآني، وأصبحت هذه الخصائص ملفتة للانتباه في شعر هذه المرحلة.

التطبيق:

1-اقرأ هذه المقطوعات واستخرج أهم خصائص شعر هذه المرحلة.

قال عبد الله ابن الزبعري :

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرُّواق بهيمُ
مما أتاني أ ن أحمد لامني فيه فبت كأني محموم
يا خير من حملت على أوصالها عيْرانةٌ صُلْح اليدين رَسومُ
إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيامَ تأمرني بأغوى خطة سهمٌ وتأمرني بها مخزومُ
فاغفر فدى لك والديَّ كلاهما ذنبي فإنك أرحمٌ مرحوم

يرثي متمم بن نويرة أخاه مالكا بن نويرة الذي قتله خالد بن الوليد في حروب الردة بقوله:

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا
وأني متى أدع باسمك لا تجب وكنت جديرا أن تجيب وتسمعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فأسرعا

يقول حسان بن ثابت:

لنَا فِي كلِّ يومٍ منْ معدٍّ سِبابٌ أو قتالٌ أو هجاءُ
فنُحْكِمُ بالقوافِي مَنْ هَجانَا ونَضْرِبُ حين تختلطُ الدِّماءُ
ألا أبْلغْ أبا سفيانَ عنِّي فأنتَ مُجوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ
بأَنَّ سيوفَنا تَرَكَتْكَ عَبْداً وعبدَ الدَّارِ سادَتُها الإماءُ
هجوتَ محمداً فأجبتُ عنهُ وعندَ اللهِ في ذاكَ الجزاءُ
أَتَهجوه ولستَ لهُ بِكُفْءٍ فشرُّكُماَ لخيرِكُما الفداءُ

هجوتَ مباركاً برًّا حنيـــــفاَ أمينَ اللهِ شيمتُه الوفاءُ
فمَنْ يَهْجُو رسولَ اللهِ منكم ويَمدحُه وينصرُه ســـواءُ

المراثي النبوية.

الرثاء في الشعر العربي:

تمهيد:

الرثاء ترنيمة الحزن الصادق التي يرددها الأسى على أوتار القلوب الحزينة، وهو من أقدم الفنون وأصدقها، لأنه مرتبط بالنفس وبالموت والرحيل وبوداع ليس بعده لقاء. ونجد اللفظة في المعاجم اللغوية العربية تأتي من رثى يرثي والمرثية بالفتح وجع في الركبتين والمفاصل[71] ويقال: رثيت لفلان رققت وأشفقت، والمرثث الصريع الذي يثخن في الحرب ويحمل حيا ثم يموت[72].

والرثاء في الاصطلاح هو بكاء الميت وذكر مناقبه شعرا أو نثرا، والمرثية بكاء الميت وتعداد محاسنه، والشعر في المراثي إنما يقال على الوفاء، ويجمع بين التفجع والحسرة والأسف والاستعظام، وذكر صفات المدح مختلطة بالدموع، وليس بين المرثية والمدحة فضل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنها لهالك[73]. والرثاء بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته، وعدّ خلاله الكريمة، وهو عند العرب البادية تشييع الميت والمشي خلف الجنازة حفاة، ويحل النساء شعورهن وتلطخ رؤوسهن بالرماد وقد تحلق رؤوسهن حزنا على الميت[74].

لقد عرف العصر الإسلامي المراثي ولكن بطابع مختلف عما تميز به في الجاهلية فقد أصبح يصدر عن نفس مؤمنة راضية بقضاء الله وقدره مفتخرة بالموت في سبيله، لذلك أقبل الشعراء على رثاء موتاهم في السلم والحرب، وأبرزوا صفات العقيدة والصبر والإيمان، لأن الحياة زائلة وأن الدار الآخرة هي مصير كل حي، وهي دار القرار.

71–الجواهري إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، دت، مادة (رث).

72–ابن منظور: لسان العرب، مادة (رث).

73–الرافعي: تاريخ آداب العرب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط5، 2012، ص721.

74–حسن جاد حسن: الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، دار العرب، دمشق، سورية، ط1، 2012، ص147.

ثانيا–المراثي النبوية:

هي قصائد شعرية قيلت في وفاة الرسول–صلى الله عليه وسلم– أسى وحزنا على فراقه أو مدحا وثناء وترحما عليه، فوفاة الرسول جعلت من الشعر بكاء له بألفاظ مؤثرة وموحية تعبر عن فداحة المصاب وعظمة الموقف، وكاد الناس أن يفقدوا وعيهم لشدة الصدمة فعمر بن الخطاب–رضي الله عنه– لم يتمالك نفسه من خلال قوله: " ليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن الرسول قد مات" ولم يقف من دهشته إلا حين نبهه أبو بكر الصديق– رضي الله عنه– إلى قوله تعالى: ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)) (سورة آل عمران، الآية 144). كانت مراثي الرسول–صلى الله عليه وسلم– حول ذكر صفاته وتصور الحزن الحقيقي لفقده، ومن نماذج المراثي النبوية يرثيه حسان بن ثابت ملتاعا معبرا عن عظيم المصيبة وخسارة الناس لفقده في قوله[75]:

تاللهِ ما حَمَلتْ أنثَى وما وَضعتْ مثلَ الرّسولِ نَبِيّ الأمَّــةِ الهادِي
ولا بَرَا اللهُ خلــقاً منْ بَرِيَّتِه أَوْفَى بذمَّــةِ جــارٍ أو بميــعادِ
مِنَ الذي كان نورا يستضاءُ بهِ مباركَ الأمرِ ذا عدلٍ وإرشادِ

وتقول فاطمة في تأبين الرسول[76]:

اغْبَرَّ آفاقُ السّماءِ وكُوِرَتْ شَمْسُ النَّهارِ وأَظلَمَ العَصْرانِ
فالأرضُ منْ بعدِ النَّبِيّ كئيبةٌ أسفاً عليهِ كثيرةُ الرَّجَفانِ
فلْيُبْكِهِ شرقُ البلادِ وغَرْبُهَا ولْيُبْكِهِ مُضرٌ وكلُّ يَمــانِي
وليُبْكِهِ الطَّودُ المعَظَّمُ جَــوُّهُ والبيتُ ذو الأستارِ والأركانِ
يا خاتمَ الرُّسلِ المباركَ ضوؤُه صلّى عليكَ منزِّلُ القــرآنِ

إن الحزن والفراق هو من دفع أصحابه و كثيرا من الشعراء إلى نظم القصائد معبرين عن عميق الأسى الذي حل بهم، وعن الفراغ الذي تركه النبي، وقد كانت وفاته صدمة نفسية أشد إيلاما للصحابة والمسلمين جميعا.

---

[75]–حسان بن ثابت: الديوان، ص:66.

[76]–ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ج2، ص102.

رابعا–الخصائص الفنية في شعر المراثي النبوية:

–في إطار بنية القصيدة حفل الشعراء بالبيت الأول من بناء القصيدة لأنه أول ما يطرق الأسماع منها، وهو الباب الذي يدل على أرجائها، فكثير من مطالع قصائد المراثي النبوية كان له ابتداء حسن واستهلال ساحر أخاذ، وكل المطالع هي عبارة عن مدخل يراد به التنبيه إلى غرض القصيدة، والإسراع بالقارئ إليها من غير إبطاء بمقدمة طللية أو مراوغة بالغزل أو نحوه، يقول عمرو بن الفحيل الزبيدي في رثاء النبي(77):

أسْعِدِينِي بدَمْعِكِ الرَّقراقِ لفراقِ النَّبِي يومَ الفِراقِ

فهذا البيت الشعري من أجود مطالع المراثي وأبرعها لسهولته، وسر جماله يكمن في تكرار أصواته خاصة في حرفي الراء والقاف، وحركات المد الطويلة في الكلمات(الرقراق، الفراق) وكان للتصريع والقافية المكسورة المطلقة جرس رقيق ليّن أسدل على البيت حنينا وأسى وافق وعبر عن المقام بصدق.

–تدور في المراثي النبوية مجموعة من الألفاظ تشكل حقلا معجميا يتكون من ألفاظ الدموع والبكاء، لأنها تعكس مشاعر التفجع الشديد، وهي لكثرتها تلائم مقام الفقيد –صلى الله عليه وسلم– فالشعراء والصحابة لم يجدوا حيلة إلا البكاء والدموع وهي ميزة فطرية لا تفارق إنسانا صادقا في حزنه ومصابه، هناك أيضا معجم أخر من الألفاظ اشتمل على صفات النبي كالرحمة والهداية والجود والنور والسراج والبشير والنذير والشمس التي تضيء والتقى والطهر...

–لم تتبع المراثي النبوية سنن المراثي الجاهلية، بل نجد فيها آثارا ظاهرة من آثار الإسلام ومن مصدريه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبهذا تضمنت المراثي الكثير من المعاني والألفاظ القرآنية، وكذلك من ألفاظ السنة النبوية.

التطبيق:

1–اقرأ بعض قصائد المراثي النبوية، واستخلص جماليات المطالع فيها.

2–استخرج أهم خصائص المرثية النبوية في هذه القصيدة انطلاقا مما فهمته من المحاضرة.

77–ينظر:محمد شمس عقاب: المراثي النبوية في أشعار الصحابة توثيق ودراسة، مكتبة دار البخاري، الإسماعيلية، مصر، ط1، 2013، ص373.

يقول حسان بن ثابت:

بطيبةَ رسمٌ للرسولِ ومعهـــــــدُ منيرٌ، وقد تعفو الرسومُ وتهمـــدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دارِ حرمةٍ بها مِنْبَرُ الهادي الذي كانَ يَصْعَدُ
ووَاضِحُ آياتٍ، وَبَاقـي مَعَـــــالِمٍ وربعٌ لهُ فيهِ مصلىً ومســـــجدُ
بها حجراتٌ كانَ ينزلُ وسـطـــها مِنَ الله نورٌ يُسْتَضَاءُ، وَيُوقَـــــدُ
معالمُ لم تطمسْ على العهدِ آيـها أتَاهَا البِلَى ، فالآيُ منها تَجَـــدَّدُ
عرفتُ بها رسمَ الرسولِ وعهـــــدهُ وَقَبْراً بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحـــدُ
ظللتُ بها أبكي الرسولَ، فأسعدتْ عُيون، وَمِثْلاها مِنَ الجَفْنِ تُسـعدُ
تذكرُ آلاءَ الرســـــولِ، وما أرى لهَا مُحصِياً نَفْسي، فنَفسي تبلَّـــدُ
مفجعةٌ قدْ شفها فقدُ أحمـــــــدٍ فظلتْ لآلاء الرسولِ تعـــــــدُ
فَبُورِكتَ، يا قبرَ الرّسـولِ، وبورِكـْ بِلاَدٌ ثَوَى فيهَا الرّشِيدُ المسَدَّدُ
وبورِكَ لحدٌ منكَ ضمنَ طيـــــباً عليهِ بناءٌ من صفيـحٍ، منضـــــدُ
لقد غَيّبوا حِلْماً وعِلْماً وَرَحمـــــةً عشيةَ علوهُ الثـرى ، لا يوســـــدُ
يبكونَ من تبكي السمواتُ يومـهُ ومن قدْ بكتهُ الأرضُ فالناس أكمدُ
إمامٌ لهمْ يهديهمُ الحقَّ جاهـــــداً معلمُ صدقٍ، إنْ يطيعوهُ يسعـدوا
عَفُوٌّ عن الزّلاّتِ، يَقبلُ عُذْرَهـــمْ وإنْ يحسنوا، فاللهُ بالخيـرِ أجـودُ
وأمستْ بِلادُ الحَرْمِ وَحشاً بقاعُها لِغَيْبَةِ ما كـانَتْ منَ الوَحْيِ تعهدُ
قِفاراً سِوَى مَعْمورَةِ اللَّحْدِ ضَافَها فَقِيدٌ، يُبَكّيهِ بَـلاطٌ وغَرْقـــــدُ
فَبَكّي رَسولَ الله يا عَينُ عَبْـــرَةً ولا أعرفنكِ الدهرَ دمعكِ يجمدُ
ومالكِ لا تبكينَ ذا النعمةِ الـتي على النــاسِ منها سابغٌ يتغمــدُ
فَجُودي عَلَيْهِ بالدّموعِ وأعْـــوِلي لفقدِ الذي لا مثـلهُ الدهرِ يوجدُ
وَمَا فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ مُحَمّـــــدٍ ولا مثلهُ، حتى القيامةِ ، يفـقـدُ